الرسالة الرابعة

الصوم وأثره في الإعداد

- القدوة الحسنة
- الكلمة الطيبة
- إيمان القلب
- إنسانية العطاء

القدوة الحسنة

قد يكون هناك بعد واضح بين النظر والتطبيق . قد يكـــون النظر فى منطقه سليماً ، وفى هدفه مستقيماً وعادلاً ، ولكنه عند التطبيق يبدو قاصراً ويتعثر قبوله فى منطق العقل . لأن التحول من كونه « نظراً » إلى « واقع » كان متخلخلاً ، ولم يكن دقيقاً ..

النظرة أو الفكرة يحملها الإنسان ، ويقوم الإنسان أيضاً بتحويلها من دائرة النظر إلى واقع الحياة . وتتوقف الدقة فى تحويلها على مقدار الإيمان بها ، أكثر من استيعابها . إذ كلما كان الإيمان بها قوياً كلما كان الدفع بها فى السلوك العملى للمؤمن بها واضحاً . وكذلك كلما كان الإيمان بها ضعيفاً كلما لا تُرى فى مجرى حياة الإنسان الذى هو ضعيف الإيمان بها .

وهنا كان سلوك الإنسان ، وكان قوله وتعبيره ، وفعله وعمله ، وكانت مواقفه مرآة إيمانه أو ضعفه بالفكرة أو بالنظرة المعينة .

* * *

ودعوة الإسلام إلى الإيمان هى دعوة إلى الإيمان بفكر ونظرات ..هى دعوة إلى مبادىء إنسانية عامة بطلب تحويلها إلى واقع فى حياة المؤمن بها ، وحياة المؤمنين بها جميعاً ككل . والمسلم الذى يقبل الدعوة إلى الإيمان بهذه المبادىء العامة يكون جهده ، كمسلم أو كمؤمن ، هو فى تحويل النظرة الإسلامية إلى حقيقة عملية أو إلى واقع ملموس فى الحياة العامة والخاصة .

وبقدر جهد المؤمن فى هذا التحويل يكون الجـــزاء من رب الـــدين وصاحب الجزاء ، وهو الله تعالى . فإذا تضاءل هذا الجهد ، بحيث لا ترى فى حياتـــه إلا فجوة واسعة بين النظرة وتطبيقها ، أو بين الفكرة وحقيقتها العملية ، أو بين المبدأ ومجرى الحياة العامة والخاصة . . فإن صاحب هـــذا الجهـد الضئيل يقف

بإيمانه عند حـد القول أو الإعلان عنه ، ولا يتجـاوزه إلى دائرة التطبيـق والواقع . . ومثله ليس له وزن إلا فى دائرة الغرم على حساب المؤمنين ككل .

ولكن إذا قوى جهد المؤمن فى « عملية التحويل » والتطبيق للمبادىء والفكر . . فإنه يعد عندئذ «نموذجاً »أو قدوة حسنة لمن يقبل المبدأ ويؤمن به. أى أن تطبيقه لما آمن به يعكس النظرات والفكر والمبادىء العامة التى آمن بها فى دقة وفى غير بعد أو فجوة .

وبما أن تلهذه النظرات والفكر والمبادىء تصور الإنسانية فى تجردها عن الانحرافات ، وهى انحرافات الأهواء والنزوات والشهوات ، فتطبيقها فى دقة وفى بعد عن الفجوات يكون نموذجاً حسناً أو قدوة حسنة .

وإذن هنا بين من يعلنون الإيمان بفكر أو مبادىء إنسانية عامة ـ تصور الإنسانية فى تجردها ـ من يكونون لغيرهم قدوة ومثلا ، ومن يكونون متخلفين فى القدوة ، بحيث يبقون فيها عند حد إعلان الشعار أو القول .

* * *

والإسلام فى نظرته إلى « المساواة » لم يسو بين أفـراد النـاس فى خصائص الطبيعة البشرية وفى الاعتبار الإنسانى والكرامـة الإنسانيـة فحسب ـ طبقاً لمنطـق الآية القرآنية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1] ـ وإنما يسوى بين المؤمنين برسالته فى المسئولية الجماعية حسبما جاء فى الحديث الشريف فى رواية ابن عمر :

« كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده ، وهى مسئولة عنهم ، وعبد الرجل راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه ، ألا : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

فالحديث يضيف هنا إلى المسئولية الفردية التى يتكفل بها الفرد ، بناء على

---

(١) الحجرات : ١٣

مشيئته التى قبَل الإيمان ، والتزم أمام نفســـه من ذاتـــه ، بنتائج هذا الإيمان وما يتطلبه من عمل أو ترك العمل ، مسئولية أخرى جماعية إزاء غيره فى أمته ، وهى مسئولية الرعاية والتوجيه .

والأنثى كالـذكر ، والعبـد الرقيق كالحر سواء فى هذه المسئولية الجماعية ، مما يدل على أن الفرد المؤمن فى مجتمع المؤمنين ليس فى عزلة من جانب ، وليس فى دائرة « الأنانية » وحدها بعمله ورعايته ومسئوليته من جانب آخر .

هو إنسان جماعى يشترك ويشارك فى المسئولية العامة ، ومن هنا كان ضعفه ، أو كانت قوته فى إيمانه عن تطبيق المبادىء العامة التى يؤمن بها والنظرة التى يسعى إلى تحقيقها . . وكان هذا أو ذاك ذا شأن خاص بالنسبة لمسئوليته الجماعية ، فإما إلى إهمال الرعاية والتغاضى عن المسئولية عنها ، وإما إلى القدوة الحسنة فى التطبيق وتحقيق رعايته .

فالإسلام فى دائرة المسئولية الجماعية أو فى دائرة المشاركة فى المسئولية يجعلها مسئولية واضحة وكاملة ، لا يفاضل فيها إطلاقاً حسب نوع الجنس ذكراً أو أنثى ، أو حسب مستوى درجة الحرية والتبعية فيما كان إذ ذاك بين الأحرار والعبيد . وإنما هى مسئولية واجبة الأداء فى صورتها الكاملة غير المنقوصة .

وهذه المسئولية الجماعية لكل فرد تجعل من الفرد المؤمن أن تدفعه إلى أن يكون نموذجاً وقدوة حسنة فى تطبيق ما يؤمن به ، وفى تحويل النظرة التى أقر منطقها إلى سلوك عملى فى أسلوب الحياة وتجاه المشاكل أو التحديات .

* * *

وهنا كان لا بد للفرد المؤمن من أن يمارس نوعاً من الرياضة أو التدريب الروحى يساعده على التطبيق وعملية التحويل إذ بدون الرياضة النفسيـــة التى تكفل لنظرة ما أن تترسب فى أعماق النفس بحيث تصبح ذات فعاليـــة فى السلوك العملى ، تبقى النظرة فكرة فى إطار العقل والمنطق الإنسانى ، يعبر عنها صاحبها فقط بالقول والحديث ، دون الفعل والعمل .

وحدود النظرة الإسلامية ـ أية نظرة إسلامية فى مجال حياة الفرد والمجتمع ـ لا تتجاوز منطقة الاعتدال إلى الإفراط أو التفريط . . أى لا تصل إلى الفكر والمبالغة ، ولا إلى التقصير أو الإهمال .

فمتع الحياة الدنيا ، وزينتها ، وما فيها من مصادر الاعتزاز بالقوة ليست بمحرمة على الإنسان المؤمن . وإنما له أن يستمتع بها ، ويعتز بها ويتزين بما يتزين به الناس من زينتها . بل يجب عليه السعى فى تحصيلها :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (١) .

فالقرآن الكريم هنا يؤكد حل الاستمتاع بطيبات الرزق وزينة الحياة للمؤمنين فى حياتهم التى يعيشونها الآن ، ويستنكر فى الوقت نفسه إنكار من ينكرها باسم الدين ورسالة الله ، وفى آية أخرى بطلب السعى فى تحصيلها مع أداء العبادة جنباً إلى جنب ، إذ تقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

فيوصى القرآن على سبيل الأمر بالتجمع لأداء صلاة الجمعة عندما يؤذن لها ، ثم يوصى كذلك على سبيل الأمر ـ بعد أدائها ـ بالتفرق ومباشرة السعى والحركة وتحصيل فضل الله ورزقه سواء أكان عن تجارة أو فلاحة ، أو أى عمل آخر يُتخذ وسيلة لتغطية حاجة المعيشة فى الحياة ، والعبادة والسعى إلى العمل وتحصيل المعيشة ، أمران متكافئان فى نظرة الإسلام إلى الإنسان فى الحياة .

ولكن فى الوقت الذى يُبيح فيه الإسلام للمؤمن به الاستمتاع بمتع الحياة المادية ، ويطلب فيه إليه مباشرة السعى إلى تحصيل تلك المتع ، يحول دون أن يبالغ ويفرط فى الاستمتاع بها ، لأنه يرى : أن الغلو فى الترف والاستمتاع

---

(١) الأعراف : ٣٢

(٢) الجمعة : ٩ ، ١٠

بمتع الحياة الدنيوية وهى متع الأموال ، والعصبية بالأولاد وبالقوة ، والجاه ، والسلطة ، من شأنه أن يؤدى حتماً إلى تفرق المجتمع بين متنعم ومترف من جانب، ومحروم وشقى فى الحرمان من جانب آخر ، ثم إلى فساد وعبث وظلم . وتلك هى طريق سقوط المجتمع وزواله .

ومن أجل هذا إذا ذكر القرآن بعد الآية التى استنكر فيها تحريم التزين بزينة الدنيا والاستمتاع بطيباتها ، وهى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

فإنما يذكر فى واقع الأمر نتائج الغلو فى الاستمتاع بمتع الحياة المادية ، وتلك النتائج هى ارتكاب الفواحش ، وهى الجرائم الاجتماعية من الزنا وانتهاك الأعراض ، وسرقة الأموال ، وقتل النفس بغير حق. بالإضافة إلى الظلم والانحراف فى السلوك ، وعبادة الأوثان وهى تلك الموجودات التى ليس لها دوام الوجود ، ولا دوام النفع والضر ، ولا دوام الأثر فى حياة من يتجهون إليها بالعبادة ، بشراً كانوا أم غير بشر .

وإذن إذ يُحَرِّم القرآن هذه النتائج والآثار للغلو فى الاستمتاع بمتع الدنيا المادية . . إنما يُحَرِّم الغلو نفسه ، ويؤكد البقاء فى دائرة «الاعتدال» التى يُطلب للمؤمن برسالته أن يبقى فيها : لا يتجاوزها إلى أعلى ولا إلى أدنى. أى لا يغلو ويبالغ ، كما لا يعتزل ويعزل نفسه عن هذه المتع ويهمل فى تحصيلها .

والرياضة النفسية المباشرة التى تُلزم المؤمن بالإسلام بالبقاء فى دائرة «الاعتدال» فى الاستمتاع بالمال ، وبالقوة المادية ، وبالجاه ـ أى جاه ـ وبالسلطة والنفوذ ، هى عبادة الصوم الفريضة فى شهر رمضان ، والصوم النافلة فيما

---

(١) الأعراف : ٣٣

عداه ، والصوم الكفاره عن فعل مستقبح وقع خطأ أو تحت الاندفاع بعادة من العادات لم تضعف بعد .

هو الـــذى يعـــد « الإمساك » لاعن أكل وشـرب فحسب . وإنما عن كل ما يسىء إلى النفس والغير على السواء . . فالإمساك عن التخمـــة والنهـم فى الأكل ، والإمساك عن الإفراط فى المعاشرة الجنسية فى دائرة المشروع من تلك المعاشرة ، والإمساك عن لغو الحديث ، والإمساك عن الغيبة والتجسس والنميمة والوشايـة ، والإمساك عن مباشرة الجرائم الاجتماعية من الزنا ، والسرقة ، والقتل . . . الإمساك عن ذلك كله ، وعما يشبهه فى الإيذاء والإضرار بالآخرين عن إرادة وقدرة يجب أن يكون أثراً من آثار الإمساك الذى تتكفل به عبادة الصوم فى الإسلام .

والصوم إذن هو العبادة التى تنقل الإيمان بـ « الاعتدال » فى الاستمتاع بمتع الحياة المادية إلى « حقيقة روحية » فى نفس المؤمن تنفعل بها فى التصرف والسلوك .

ومن هنا كان دور العبادات فى الإسلام ليس دوراً انعزالياً عن تحويل نظرة الإسلام إلى الحياة إلى حقائق نفسية وإلى واقع فى مجرى الحياة الخاصة والعامة للمؤمن والمؤمنين معاً . ولذا إذا كان المسلم يؤدى العبادات المفروضة فى انتظام وليس لأدائها أثر إيجابى فى سلوكه وفى مواقفه يكون مسلماً بالشعار وبالإعلان . وليس مؤمناً على الحقيقة . أو بعبارة أخرى : تكون عبادته عبادة رسوم وليست عبادة فاعلية .

* * *

وإذا رُوى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قوله : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » ... فإن هذا القول يُصَوِّر ما يجب أن يكون عليه أثر الصوم فى حياة الصائم . وهو هنا أثر غير مادى . وإنما هو أثر نفسى يتعلق بإنسانية الإنسان ، كما يرتبط بالقدوة الحسنة التى تفرضها المسئولية الجماعية .

وتخلخل العبادة فى حياة الإنسان المؤمن اليوم وعدم فاعليتها فى توجيه السلوك وتحديد المواقف لايعيب الإسلام كدين لله . وإنما يعيب الإنسان الذى يؤمن بالشعارات وبالرسوم أكثر من إيمانه بتحويل مبادىء الإسلام إلى واقع يُرى ويُشاهد فى حياته ، عن طريق أداء العبادات أداءً صحيحاً يستتبع الالتزام ، دون الإلزام .

والقدوة الحسنة فى سلوك الإنسان إحدى نتائج عبادة الصوم ، إن أديت كعبادة وكقُربى ، أقدم عليها الصائم بمشيئته واختياره والتزم بها أمام ذاته فى غير وجود رقيب أو سلطة تحمله عليها . وإمساكه عن الأكل والشرب فيها هو إمساك عن قدرة الاستمتاع بالأكل والشرب ، وليس إمساك العاجز عن هذا الاستمتاع بسبب أو بآخر . فإذا اعتدل بعد ذلك فى الاستمتاع بمتع الحياة فإنما يعتدل عن قصد وإرادة وعن قدرة . ومن أجل ذلك إذ يُعد قدوة حسنة لا يُعد فى اعتداله فحسب ، وإنما يُعد قبل ذلك فى إنسانيته ، التى هى على وجه التحديد : المشيئة والإرادة والكرامة .

والقدوة الحسنة فى دائرة الرعاية التى نيطت بالمؤمن يكون لها أثرها فى الرعاية والتوجيه أكثر من القول أو الكلمة . فالرجل فى أسرته ، والمرأة فى أهل زوجها وولده ، والعامل فى مال غيره . . كل من هؤلاء يُحدث بسلوكه العملى الأثر النافذ فى توجيه من يرعاه . والمجتمع كله ليس إلا رجلاً فى أسرته ، وامرأة فى أهل بيت زوجها وولده ، وعاملاً فى مال غيره .

والاستجابة للقيادة التى تُنيرها القدوة الحسنة أبقى وأسلم من تلك التى يحمل عليها الإكراه .

* * *

الكلمة الطيبة

الكلمة الطيبة ـ كما يراها القرآن الكريم ـ هى الكلمة التى تنطوى على إنسانية . أى تنطوى على معنى يُحسن إلى الغير ، ويُبعد الضرر عنه ..

فالكلمة الصادقة فى مقام المشورة أو التوجيه ، البعيدة عن النفاق والخداع هى كلمة طيبة : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ (١) . (أى صادقاً) .

فالآية تربط بين أمرين هنا : بين اتقاء الله بالعمل الصالح المثمر وتجنب الفعل المؤذى للآخرين من جانب ، والقول السديد أو الصادق فى مقام النصح أو الشهادة من جانب آخر . وتضع الأمرين فى كفة متكافئة ، سواء فى نطاق الحياة الشخصية أو الحياة العامة . .

والكلمة الداعية إلى الله وإلى المبادىء والقيم العليا ـ بعد العمل طبقاً لها ـ هى كلمة طيبة ، من شأنها أن توصل إنسانيته إلى آخرين : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّنْ دَعَآ إِلَى اللَّه ، وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٢) .

وهذه الآيات إذ تصف الدعوة إلى الله ـ وهى الدعوة إلى المبادىء والقيم العليا التى تمثل المصلحة العامة للجميع ـ بالقول الحسن ، فهى فى الوقت ذاته تشير إلى التجربة فى حياة الناس وفى لقائهم ومعاملة بعضهم لبعض ، تلك التجربة التى تقوم على أن الأمر الذى يثير استحسان الناس سواء أكان قولاً أم فعلاً ، له من الأثر فى الترابط ، وفى تحويل العلاقات من خصومة إلى صداقة ، ما ليس لغيره من مال أو أى شئ مادى آخر .

وهى إذ تشير إلى هذه التجربة تستهدف توضيح : أن الدعوة إلى القيم العليا ، بعد مباشرة العمل طبقاً لها ، هى قول ذو أثر حسن فى توجيه الناس وفى علاقاتهم .

والكلمة التى تبعد الانتقاص من الاعتبار البشرى فى وضع يثير الحساسية بالنسبة لطرف من الطرفين وهو الوضع غير المتكافئ كالوضع بين المعطى

---

(١) الأحزاب : ٧٠

(٢) فصلت : ٣٣ ـ ٣٥

والآخذ ، أو الوضع الذى يوحى بعقوبة على إساءة تُرتكب . . هى كلمة طيبة كذلك . لأنها توصل معنى كريماً إلى الغير يحفظ عليه إنسانيته ، فى وقت قد يظن هو فيه أنه أدنى من غيره فى مستوى الكرامة البشرية .

وإذ يقول القرآن الكريم : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً ﴾ (١) .

فينصح بالقول المعروف مع العطاء من مال المتوفى ، لمن يتصف بأنه من أولى القربى واليتامى والمساكين ، ليحفظ على الآخذ إياه قيمته واعتباره الإنسانى . فأى واحد من هذه الأنواع يحس على الأقل فى نفسه بأنه فى مستوى بشرى أدنى من المعطى إياه عندما يمد يده إليه .

وإذ يقول أيضاً : ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُم قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً ﴾ (٢) .

فينصح بعدم إعطاء السفهاء أموالهم التى كانت حتى الآن تُستثمر لحسابهم ثم فى الوقت نفسه ينصح باستمرار معيشتهم من هذه الأموال . بالإضافة إلى الاحتفاظ بكرامتهم الإنسانيه ، فلا يوجه إليهم من القول إلا ما يشعرهم باحترامهم رغم موقفهم السئ من الأموال التى يملكونها ، وهى فى حقيقة الأمر تعود بمنفعتها إلى الجميع .. إذ ينصح القرآن بكل ذلك فإنه يفرق بين سوء تصرفه فى أمواله من جانب ، وكرامة إنسانيته من جانب آخر .

ولكل من الأمرين نتيجة ، فسوء التصرف فى الأموال الخاصة يتطلب انتزاعها من المسئ أو عدم ردها إليه ، لأن منفعتها منفعة عامة ، رغم ملكيتها الخاصة ولذا تضيف الآية هذه الأموال التى هى خاصة فى حقيقة أمرها إلى المسلمين جميعاً فتقول : ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ وتوضح علة ذلك بأن منفعتها لا تقتصر على من يملكها وحده ، وإنما هى للجميع فتذكر : ﴿ .. الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾ كوصف لهذه الأموال .

---

(١) النساء : ٨ النساء : ٥

وفى هذا الجانب وهو جانب المحافظة على كرامة من يشعر بنقص فى نفسه بسبب ما يؤثر القرآن الكلمة الطيبة أو القول المعروف لصاحب الحاجة المادية على الإعطاء والذى يتبعه الأذى النفسى من المعطى : ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ (١).

ذلك لأن الألم الناتج لصاحب الحاجة المادية لا يقوض نفسيته كذلك الألم النفسى لمن يُمتهن ويُحتقر ، الناتج عن امتهان الغير واحتقاره إياه .

والكلمة اللطيفة التى لا تثير الغضب عند محاولة الإقناع ، أو عند الجدل وتبادل الرأى هى كلمة طيبة ، لأن أثرها إن لم يكن أثراً إيجابياً فهو بعيد عن أن يكون مؤذياً لأحد ، فى الوقت الذى يترك الباب مفتوحاً لمحاولة إقناع أخرى لا تسده كدرة النفس ولا انفعال الغضب بسبب الإحساس بإيذاء ما ....

وفيما ينصح بـه القرآن موسى وأخـاه هـارون باستخـدام اللين واللطف فى القول عند لقائهما لفرعـون في قـوله : ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (٢) . إنما ينصحهما بما يشيد ويبنى فى العلاقات والصلات ، وليس بما يدمر ويهدم أو يزيد فى التدمير والهدم لعلاقات ربما تتحسن بين آونة وأخرى . وهو استخدام الكلمة الطيبة . .

وكذلك عندما يناشد القرآن المؤمنين فى نقاشهم مع أهل الكتاب رغم الاختلاف ـ البين بين الطرفين ـ أن يجادلوهم بالحسنى إن جادلوهم وتعرضوا للقضايا المختلف عليها بينهم ، فى قوله تعالى ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٣) . يناشدهم بما يعود على دعوتهم بالخير . فإن أسلوب الحسنى فى الجدل والمناقشة يثير على الأقل مراجعة نفسية لموضوع الجدل لدى من يتشدد فى رفضه بادىء ذى بدء .

---

(١) البقـــرة : ٢٦٣ (٢) طه : ٤٢ ـ ٤٤

(٣) العنكبوت : ٤٦

والكلمة الدالـــة على حسن الرعاية والإقرار بصنع الجميل هى كلمة طيبة كذلك .

فما يوجهه القرآن إلى الأولاد من نصح فى معاملة الوالدين عنى فيه ـ فى الدرجة الأولى ـ باختيار التعبير الذى هو بعيد كل البعد عما يشعر بالإساءة فى أدنى درجاتها فتقول الآية :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ إلاَّ تَعْبُدُوا الاَّ إيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا ، إمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أحَدُهُمَا أوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ (١) . والعناية هنا بالجانب المعنوى فى الرعاية للوالدين أوضح من ذلك الجانب الآخر وهو الجانب المادى . فوضع الوالدين فى شيخوختهما لا يحرص على الاستمتاع بالمتع المادية ، بقدر ما يحـرص على الإحساس بتقدير الأبناء لهم ، اعترافاً بحسن صنيعهم معهم فيما مضى ، يوم أن كانوا هم فى حاجة ماسة إلى رعاية الوالدين لهم دون غيرها .

ومن أجل الأثر النفسى البنّاء للكلمة الطيبة فى حياة الإنسان وحياة الآخرين معه كان وضع « الكلمة الطيبة » فى الميثاق الذى أخذه الله سبحانه وتعالى على بنى إسرائيل مساوياً لعبادة الله وحده ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ولكنهم تخلوا عن اتباع ما جاء فيه . فتقول الآية القرآنية : ﴿ وَإذْ أخَذْنَا ميثَاقَ بَنِى إسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا وَذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلاَّ قَلِيلاً مِنكُمْ وَأنتُم مُعْرِضُونَ ﴾ (٢) .

وكذلك كان نصح القرآن للمنافقين على عهد الرسول محمد ﷺ فى تحديد موقفهم من أحداث الأمة الإسلامية إذ ذاك : أن يطيعوا ، وأن يقولوا المعروف : ﴿ فَأوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ (٣) . فإنهم إذا قالوا المعروف تجنبوا النفاق حتماً . فقول المعروف أو الكلمة الطيبة هى التعبير عن المعانى الإنسانية والبعد فيه مما يؤذى الآخـرين : إن فى النصح والمشـورة ، أو فى المعاملـــة ، أو في الإقناع ، أو فى الرعايـة والزيادة .. والنفاق إنما هـــو خـــداع وانتهازية

---

(١) الإسراء : ٢٣ (٢) البقرة : ٨٣ (٣) محمد : ٢٠ ، ٢١

وأنانية ، ولا شيء من الخداع والانتهازية والأنانية ينطوى على صفة إنسانية كريمة لا يمكن أن يسىء من يتصف بها إلى الآخرين .

ومنزلة الكلمة الطيبة إذن فى دائرة التقييم والتقدير هى بمثابة إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وفى دائرة التطبيق العملى فى حياة الفرد والمجتمع تساوى الإيمان الصريح بالقيم والمبادىء العامة وتساوى الإنسانية فى خصائصها الكريمة .

* * *

ولكن كيف ينزل بالكلمة الطيبة من يطالب بها مجال التطبيق ؟ أو بعبارة أخرى : كيف يكون الإنسان صاحب تعبير مستحسن أو صاحب قول معروف ؟

من السهل على الإنسان أن يكون نابياً فى لفظه وكلمته . ومن السهل عليه أيضاً أن يكون قبيحاً ، ومن السهل عليه كذلك أن يكون أنانياً فيستخدم الخداع والنفاق فيما يعبر وينطق به . كما أنه من السهل أن يتبع الإنسان شهوات نفسه وهواه ويعتدى على حقوق الآخرين وحرماتهم ..

ولكن ليس من السهل على الإنسان أن يكون مستقيماً فى سلوكه ، ومتخيراً لألفاظه وعباراته ، بحيث يبتعد فيما يختاره عما يجرح إحساس غيره الآخرين ويسىء إلى اعتبارهم البشرى . وليس من السهل عليه أن يكون أيضاً متأنياً فى تفكيره ومرجحاً بعد تأمل لما يراه .

إن هذا يحتاج إلى دربة . والدربة فى نجاحها تتوقف على إرادة وعزم صادقين . وقد كان فيما أراده الله من عبادة الصوم كل عام أياماً معدودات ـ عدا صوم النافلة أو الكفارة ـ ما يكون العزم والإرادة الصادقة ، أو ما يشد أزرها ويقويها فى مواجهة الإغراء أو فى مواجهة الأزمة والضيق .

فالصوم من خصائصه ، وهو الإمساك عما يمتع الإنسان أو يحتاجه البدن فترة اليوم فى كل الأيام المعدودات ، كفيل بتدريب النفس الإنسانية على اتخاذ موقف الحرمان تجاه الذات نفسها . والدافع إلى هذا الموقف هو « العبادة » أو القُربى إلى الله أن ييسر على النفس ما تتقرب به ، وهو هنا الصوم .

وإذا تعودت النفس على موقف الحرمان تجاه الذات فيما يتعلق بمتعة البدن، فإنها تتعود كذلك على نفس الموقف تجاه ما ينطق به اللسان ، أو يجرى فى التفكير فلا تندفع فى التعبير والنطق ، كما لا تسرع فى المنطق والفكر.. ويؤدى عدم الاندفاع أو عدم التسرع فى هذا وذاك إلى التريث والانتقاء . . وعندئذ يكون اختيار الكلمة ـ أو الكلمة الطيبة ـ عنوان الفكرة المفيدة .

والفكرة المفيدة والكلمة الطيبة هما شعار الإنسانية التى خلصت من شائبة الحيوانية أو من مشابهتها . وأمارات التريث إذن فى الفكرة ، والاختيار للكلمة أنه لا يكون من نتائج أى منها أذى للنفس التى فكرت واختارت ولا لنفس أخرى قريبة أو بعيدة فى المجتمع .

والعبادة إذن التى تدفع إلى الإمساك والحرمان ـ وهى عبادة الصوم ـ وسيلة فى تخليص إنسانية الإنسان من حيوانية الحركة فيه . فشأن الحركة الحيوانية الانطلاق والاندفاع ، ولو إلى التردى فى الموت والهلاك ، بينما شأن إنسانية الإنسان فى حركتها التمهل للكشف والتبصر . فالعقل يتمهل ليكشف ، والعين تدور فى رؤيتها لتبصر . ثم تكون حركة القدم بعد هوى وفى مأمن إذن من الضرر والضرار .

فعبادة الإمساك ، هى عبادة للإنسان ككل .. وليست عبادة لبدنه وحده . إنها عبادة للبدن ، وعبادة للإنسان ، وعبادة للفكر والمنطق .. ومن يعتبرها عبادة للبدن وحده كمن يجعل « الصلاة » فى الإسلام تمريناً لأعضاء الجسم ، وليست وسيلة للانتهاء عن الفحشاء والمنكر .

والكلمة الطيبة التى يجب أن يمارسها الصائم عن طريق صومه هى رمز لإنسانيته قبل أن تكون تعبيراً يبتعد فيه عن الإيذاء والإيلام للآخرين .

والصوم إذا أخذ على أنه عبادة وليس عادة ، له فعالية فى حياة الصائم ـ أو يجب أن يكون له ـ يقربه فيها من الإنسان بقدر ما يبعده عن الحيوان .

* * *

إيمان القلب

إن الإيمان حقيقة نفسية تترسب فى أعماق الذات ، وتصدر عنها الظواهر التى تستتبعها كنتائج ضرورية ، والمؤمن هو الذى ينفعل بهذه الحقيقة النفسية فى ذاته ، فى سلوكه ومنهجه فى الحياة ، وفى تفكيره ، وفى مواقفه من الأحداث والمشاكل التى تواجهه . وقلما يسلك مسلكاً ، أو يقف موقفاً ، أو يأخذ طريقاً فى التفكير بجانب هذه الحقيقة النفسية عنده أو يضادها .

وهنا يبدو ثبات المؤمن على ما يؤمن به فى حال رخاء أو شدة ، أو فى ضيق وأزمة . وربما يصل به إيمانه إلى إنكار الذات فى سبيل ما يؤمن به . والتضحية بما له ـ ولو كان النفس ـ دفاعاً عن إيمانه أو نتيجة لإيمانه .

وغير المؤمن ، أو من لم تترسب فى أعماق ذاته تلك الحقيقة النفسية للإيمان تسهل قيادته ، ويتردد اتجاهه فى حركة فى الحياة بين النقيض ونقيضه ويخف ثباته أو وفاؤه . ويأخذ بالأثرة دون الإيثار ، ويتمسك بالحرص دون التضحية ، ويروغ من الأزمة ، وينحنى أمام الشدة .

وإيمان القلب هو إيمان القيم العليا . لأن القلب ـ وهو مركز الحياة العضوية فى الذات الإنسانية ـ لا يضاف إليه فى دائرة الإنسان إلا ما ينطوى على العزيز عليه ، وإلا ما يحرص على بقائه وعلى عدم التفريط فيه ، أو إلا ما يعمل فى غير انقطاع على تحقيقه والتقرب به أو إليه .

والتجانس بين القلوب فيما يترسب فى النفوس من حقيقة الإيمان بالقيم العليا هو الرباط الذى يشد بين القلب والقلب ، وهو مصدر التكتل أو مصدر القوة التى لا تضعف أمام الأحداث والشدائد ، مهما عظمت : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنكُمْ

عشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُن مِّنكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾ (١) .

فهـــذه الآيات كما تبين : أن التآلف الذى يقوم على إيمان القلوب بالقيم العليا ، أشد وأبقى من ذلك الذى يؤسس على تبـادل المنافع المادية ، تبين أيضاً : أن القوة التى مصدرها هذا التآلف بين القلوب هى قوة لا تتراجع فحسب أمام الأحداث ، ولكنها مع ذلك قـــوة تدفـــع فى عنف ما يصادفها من شدائد ، ولو كانت هذه الشدائد أضعاف طاقتها . إذ أن قـوة التكتل على إيمان القلوب لا يُسهم فيها فقط بُعْد القيم العليا التى يتجه إليها الإيمان عن مصدر الخلاف والنزاع بين المؤمنين بها ، وإنما يُسهم فيها أيضاً ضعف الطرف الآخر ، وهو الذى لا إيمان له بتلك القيم . ذلك الطرف الذى يتجه بسعيه ـ كل سعيه ـ إلى المتع المادية . وهذه شأنها أن تُفَرق وتُضعف ، ولا تجمع إلا لوقت قصير ، يعقبه التنازع فالخصومة فالصراع فالفناء .

والإيمان بالقيم العليا يقتضى النفرة من الوثنية فى جميع صورها ، وتجنب الفسوق والعصيان والانحرافات فى سلوك الإنسان مع نفسه ومع غيره . وآيةُ وجوده هى تلك الأمارات التى تقصها الآية الكريمة : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ (أى متواضعين) عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ (أى أصحاب كبرياء وسيـــادة) عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ (أى بالنفس قبل المال) فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ (أى فى مواقفهم من قضية الإيمان بالله) ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، واللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا (أى يتخذهم أولياء وأصدقاء) فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) الأنفال : ٦٣ ـ ٦٥

(٢) المائدة : ٥٤ ـ ٥٦

وأهمية إيمان القلب إذن هى أهمية حياة الإنسان ذاتها . . هى أهمية السيادة والعزة على أعداء الإيمان ، وأهمية التعاطف والتوادّ بين المؤمنين . . هى أهمية النصر والغلبة فى معـــارك الحياة ، والتغلب على المصاعـــب والعقبات فيها .

وإذا كان صاحبُ الإيمان بالقلب هو صاحب التحمل فى الأزمات ، والثبات فى قتال الأعداء ، والتضحية وإنكار الذات فى سبيل المصلحة العامة فإنه أيضاً صاحب رقابة ذاتية على تصرفاته وسلوكه وصاحب التزام فى طواعية لأداء ما يطلبه إيمانه منه . وإيمان القلب لا يطلب سوى التآخى وتجنب الإضرار ، والشدة فى رد الاعتداء : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (١) .

وهنا يجب أن نسأل : كيف يتحقق إيمان القلب ؟

كيف تترسب فى نفس الإنسان حقيقة نفسية تتفاعل فى خط معين واتجاه معين مع تفكير الإنسان ، وسلوكه ، ومواقفه وتصرفاته ؟

إن السمع يسمع عن إيمان القلب الأحاديثَ والعظات ، وإن البصر يقرأ توضيح الآثار لهـذا الإيمان فى حياة الإنسان ، وحياة الأمة فى حاضرها وماضيها . ولكن هل بالسماع والبصر يتحول المسموع وما يُدرك بالبصر عن الإيمان إلى « حقيقة نفسية » تؤثر ـ رغم الأحداث المضادة والمناوئة ـ فى التوجيه من غير تردد بين النقيض ونقيضه ؟

إن السمع والبصر كلاهما يدرك فحسب ، وما يدركه الإنسان عن طريق السمع والبصر قد لا يؤمن به من يسمعه أو يبصره ، ويظل على « السطح » فى نفس الإنسان ولا يرسب فى أعماقها فيستقر ويسكن . وبالتالى يبقى ظلاً وشبحاً لا يتحول إلى « واقع » ذى فاعلية وتأثير .

ولذا : بجانب التوضيح عن طريق السمع والبصر ، والتنوير عن طريق تكرار الدعوة إلى إيمان القلب ، فإنه لا بد أن يكون هناك عامل آخر ، ليس غريباً عن

---

(١) الفتح : ٢٩

الذات ، وإنما هو ثابت فى قرارة أمرها ، ولكن فى وجوده قابل للتشكل والتصور فى شكل ما وفى صورة ما .

هذا العامل هو « الاعتقاد » . فكل نفس فى ضلالها وهدايتها ، وفى أمنها وخوفها ، وفى ثباتها واضطرابها ، وفى ضعفها وقوتهـــا ، لها اعتقادٌ ما بشئ ما أو فى شئ ما . قد يصير إلى اعتقاد الوهم ، وقد يصير إلى اعتقاد الوراثة والرواية . وقد يصير إلى اعتقاد المنطق الصحيح والواقع البين .

فإذا اتجه الاعتقاد إلى « الكامل فى الوجود » ـ وهو ليس إلا من هو فوق المصلحة الشخصية ، ومركز التقاء المصلحة العامة للجميع ـ تحول الاعتقاد به إلى عبادته إياه .

وعن عبادة « الكامل فى الوجود » يأخذ ما يأتى عن طريق السمع والبصر سبيله إلى أعماق النفس ويصبح « حقيقة نفسية » أو حقيقة إيمانية تستقر فى تلك الأعماق وتؤثر فى صورة مستمرة وباقية ، فى سلوك الإنسان ونشاطه الإنسانى على العموم .

وهنا دور العبادات فى الإسلام . فإن العبادات التى وردت فيـه تتجـه بالإنسان إلى الله وحـــده ، ومعنى عبـــادة الإنسان لله الواحد البقاء بالاحترام فى دائرة واحـــدة ، وهى تـلك الـدائرة التى تحدد ذات الله جل جلاله .. هى دائرة صفاتـــه . وكل صفـــة منها تمثل قيمـــة من القيم العليـــا : الحياة تمثل الخلـــود فيها ، والعلم يمثل البقية والإحاطة فيه ، والإيجاد أو الفعل يمثل الخالقية والإبداع فيه ، والغنى يمثل الاستقلال الذاتى فى عدم الاحتياج إلى الغير .. وهكذا .

والذى يتجه بعبادته إذن إلى الله وحده هو الذى يعظم تلك القيم العليا ويسعى إلى التقرب منها ، فإذا تقرَّب إلى الله الحى فلا يتقرب إليه إلا بحياة تسجل للمقترب الخلود والبقاء بين الناس ، عن طريق الإيثار والتضحية والإخلاص والمحبة للآخرين معه .

وإذا تقرَّب إلى الله العليم فإنه يتقرب إليه بالسعى إلى المعرفة والإحاطة فيها والدقة واليقين فيها كذلك ، متجنباً الظن فى سلوكه وفعله وفى تفكيره .

وإذا تقرَّب إلى الله الخالق المبدع فإنه يتقرب منه بإتقان ما يعمل والأمانة فيه ، وتجنب الخداع أو الغش فيه .

وإذا تقرَّب إلى الله الغنى فإن يتقرب إليه بالقناعة عن قدرة ، وبالتعفف عن موجود ، وبعدم السؤال عند الحاجة ، وبالسعى الذاتى والعمل المجدى فى تحصيل الرزق وحسن إنفاق ما يحصله ... الخ .

وبقاء الإنسان بعبادته واحترامه وخضوعه فى دائرة القيم العليا التى تحدد ذات الله الواحد .. هى عدم ذبذبته بين الشئ ونقيضه فى الاحترام والتقرب منه ، وهذا من شأنه أن يُبعد النفاق ، والانتهازية ، وبالتالى من شأنه أن يجعل العابد مستقراً وثابتاً فى مواقفه وسلوكه وطاعته .

والقيم العليا بدورها ترفع اتجاه الإنسان فوق مستوى المتع المادية المؤقتة ، فالقيم العليا لا تكون قيمة عليا إلا إذا كانت فوق مستوى « التوقيت » وفوق مستوى الاستهلاك الرخيص الذى لا يبقى له أثر فى حياة الإنسان .

ومعنى القيم العليا فى حياة الإنسان إذن عدم الانجذاب لما هو مؤقت ولو كان متعة ، وهنا تُفهم التضحية بالمال وحتى بالنفس فى سبيل الحرص على الدفاع ، أو فى سبيل سلامة القيم العليا .

وعبادة الصوم على وجه أخص تحقق فى إطار إيمان القلب ـ أو الإيمان بالقيم العليا ـ قيمة الرقابة الذاتية على تصرف الذات وسلوكها ، إذ الصوم ليس إمساكاً عن متعة مادية فى فترة زمنية محددة فقط ، وإنما هو إمساك فى غيبة أية رقابة خارجية .. هو إمساك عن هذه المتعة ـ رغم إلحاح الشهوة النفسية ـ فى مواجهة الذات وحدها .

فالصائم يصوم تحت رقابة ذاته وحدها ، وإذا كان يريد الحرمان من المتع فى فترة ما ، وينفذه تحت إشرافه الشخصى ، ويحسم أمر التردد بين ما يريده من حرمان ، وما تريده شهوة النفس من استجابة وانطلاق ، بالإصرار على الحرمان ، فقد تكوَّنت لديه الآن طاقة أو صلاحية للثبات فى مواجهة ما قد تعترضه عليه ظروف خاصة أو أحداث معينة من حرمان مؤقت قصير أو طويل لما تشتهيه نفسه أو تستمتع به .

كما أن عبادة الصوم ذاتها تُسهم بصورة ما فى إيمان القلب وتحويله إلى حقيقة نفسية مستقرة فى أعماق النفس واللاشعور ، لأن الصوم إذا كان ظاهرة لهذه الحقيقة الإيمانية ، فإنه بدوره يؤكد وجود هذه الحقيقة وينمى فاعليتها ، فرقابته الذاتية يتطلع فيها إلى ايمانه القلبى ـ وهنا يكون إصراره على الحرمان ، بينما تنفيذ الإصرار تحت الرقابة الذاتية يزيد من فاعلية الإيمان ويقويه .

وقيمة « الرقابة الذاتية » على سلوك الإنسان ، وأدائه للواجبات التى تتوقف عليها حقوق الآخرين فى المجتمع تقدرها الفلسفة المعاصرة لنظم الحكم القائمة ، فتشديد الرقابة الخارجية ـ بعد تضعيفها ـ لا يدل فحسب على إفلاس تلك الفلسفة فيما تستهدفه ، وإنما يدل على الحاجة الماسة لوجود هذه الرقابة الذاتية فى أداء الواجبات وأخذ الحقوق ، وصيانة النظم وتحقيق التعاون المثمر .

إن إيمان القلب هو إيمان بالمثل العليا .

والطريق إليه هو عبادة الله وحده .

وعبادة الصوم ليست منعزلة عن الإسهام فى تأكيد إيمان القلب . بقدر ما هى معينة على تكوين الرقابة الذاتية فى الإنسان .

وصاحب الرقابة الذاتية فى سلوكه ، وفى طاعته ، وفى أدائه للواجبات وأخذه للحقوق هو إنسان مأمون ، تسيره ذاته ، وليس يرهبه السوط ، فوق أنه ليس بحاجة إليه فى الطاعة وأداء الواجبات .

والمجتمع صاحب الرقابة الذاتية هو المجتمع الذى لا يُغلب أبداً : ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١) .

* * *

إنسانية العطاء

هل الصوم ـ معادلة ـ يساوى الحرمان فيه من المتعة البدنية طوال النهار الاستمتاع بتلك المتعة منذ الإفطار بعد الغروب ؟

هل الصوم طريق للادخار والتجميع وزيادة الاقتناء ؟

---

(١) المائدة : ٥٦

أم أن الصوم « اكتفاء » للصائم وتوسعة من « الفائض لديه » على الآخرين؟

لو أن الصوم كان معادلة يساوى الحرمان فيها الاستمتاع ، أو كانت تزيد فيه متعة الاستمتاع عن مألوف العادة لما كان الصوم عبادة ، يتقرب بها الصائم إلى ربه ، ولما كان تجربة نفسية تُكوِّن الرقابة الذاتية من جانب ، وتُعين على وجود الإرادة القوية فى مواجهة الشدائد من جانب آخر ..

فمن يتعادل حرمانه مع استمتاعه ، بم يتقرب إلى الله ؟ أيتقرب بالحرمان لذات الحرمان ؟ إن الله سبحانه وتعالى لا يرى على الحرمان الذى يُعَوَّض بمقداره جزاء ، ولا يرى فيه كذلك عملاً صالحاً . إذ العمل الصالح هو ما ينطوى على « إنسانية » للذات أو للغير ، وجزاء الله لإنسان ما على عمل يقوم به ، باعتبار أن هذا العمل يوصل نفعاً للإنسان وللآخرين كذلك . فالله وهو ملتقى الخير والمصلحة العامة للجميع ـ يرتبط جزاؤه دائماً بما يتصل بالخير العام والمصلحة العامة ، وإلا فذاته جلت قدرته ليست فى حاجة إلى ما سوى الذات وحدها .

ومن يزيد استمتاعه عن حرمانه ـ حسب المألوف ـ لا يستطيع أن يرى فى زيادة المتعة البدنية قُربى إلى الله . لأنه لا يستطيع أن يتقرب بتخمة المعدة ـ أو بالمبالغة فى أية متعة بدنية أُخرى ـ إليه . لأنه فى واقع الأمر عندئذ يتقرب بزيادة إفقار الفقير أو بحرمان صاحب الحاجة ، وإفقار أو حرمان صاحب الحاجة يصيب « المصلحة العامة » أو يصيب « الخير العام » بضرر ، ولم يكن الضرر أو الضرار يوماً ما قُربى إلى الله .

أما التجميع وزيادة الاقتناء عن طريق الصوم فلم تكن العبادة لجمع المال ، وإنماء المال . وإلا كانت الدنيا ومتعها هدف الدين ، وليست الآخرة .

بل الأمر على العكس : وهو أن العبادة فى الدين طريق لعدم التشبث بالمتع الدنيوية ـ وفى مقدمتها الأموال ـ ولعدم الإلحاح فى طلبها ، والوقوف عندها كغاية أخيرة .

ولذا : يجب أن يكون الصوم ـ العبادة ـ طريق « اكتفاء » للصائم ، وعن هذا الاكتفاء يجب أن يكون هناك « فائض » عنده . فالمؤمن فى الإسلام يملك ملكية خاصة ولكنه مطالب فى الوقت نفسه أن يُشرك غيره فى منفعة ما يملك . ومن هنا كانت هذه القاعدة هى الأساس لانتزاع أموال السفهاء من أيدى هؤلاء السفهاء ، لأنه ارتبط بها حق عام ، وهو المنفعة العامة أو الوظيفة الاجتماعية للمال الخاص . تقول الآية الكريمة : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (١) .

فالأموال المذكورة هى أموال السفهاء على الحقيقة وهى ترجع فى ملكيتها إليهم ، ولكن الآية أضافت هذه الأمـوال للمسلمين جميعاً باعتبار منفعتها العامة ، تلك المنفعـة التى ذكرتهـا فيما تقول : ﴿ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ أى جعل لكم فيها قواماً لمعيشتكم .

وإذا كان المؤمن المالك مطالباً بإشراك الغير فى منفعة ماله ، فيما يفيض عن حاجته : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ (٢) .. فما يتبقى عن «اكتفائه » فى الصوم سيضم إلى رصيد «الفائض » عنده عن الحاجة فيما يملك، وبالتالى سيتسع هذا الرصيد لحاجة الآخرين فى صورة ما .

وحينئذ يمكن أن يكون الصوم عبادة ، لأن فيه آنئذ نفعاً للذات التى تباشره وهى التعود على الرقابة الذاتية فضلاً عن تصفية الإرادة وصهرها بحيث تكون صالحـــة للمواجهة فى التحديات والشدائد ، ونفعاً آخـر كـذلك وهـــو زيادة « الفائض » لأصحاب الحاجة فى الأمة .

* * *

والعطاء الذى يُعطى من صاحب المال أو صاحب الفائض من المال لا يُعطى فى مقابل ، ولا يكون بديلاً أو عوضاً عن أمر ما : عن خدمة . أو شئ آخر يُظن أنه مقابل ، يُعطى فقط تعبيراً عن واجب الأداء لذاته .

---

(١) النساء : ٥ (٢) البقرة : ٢١٩

وليس للمعطى فضل العطاء ، وليست له يد على غيره فيما يعطيه إياه . وهنا ليس له حق فى اتباع ما يعطيه بالمن أو بالأذى لمن يأخذ . وإلا كان العطاء الذى فيه يقول الله :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (١) وإلا أيضاً لم يكن له جزاء كذلك عند الله على ما يُعطى : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ (وهو سبيل المصلحة العامة) ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا مَنًّا وَلاأَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (٢) .

فقبول العطاء من جانب والجزاء عليه من جانب آخر مرهون إذن بالإخلاص فيه وابتغاء وجه الله وحده ، وعندما يتحدث الإسلام عن « وجه الله » يتحدث فى واقع الأمر عن الإنسانية والمصلحة العامة فى الأمة ، يتحدث عن عدم الغرض الشخصى وتحقيق المآرب والأهداف الخاصة . كالجاه والنفوذ أو تغطية الانحراف فى استثمار المال .

* * *

والعطاء من المال أو مما يُقتنى لصاحب الحاجة أو للمصلحة العامة إن كان نتيجة مباشرة لإمساك الصائم فى صومه كعبادة ، فإن مبدأ العطاء الذى تكوّن عند الصائم لا بد أن يمتد فيشمل النشاط الإنسانى ومجالاته المختلفة لدى الذى تأثر بعبادة الصوم .

وكما أن إمساك الصائم يجب أن يتجاوز الإمساك عن الأكل والشرب إلى الإمساك عن كل ما يؤذى الغير ويضره أو يؤذى النفس ويضرها فى فترة الصوم وفيما وراءها أيضاً ، فكذلك يجب أن يتجاوز عطاؤه ـ كنتيجة لعبادة الصوم ـ مجال المال وما يُقتنى إلى مجالات النشاط الإنسانى جميعها . إلى مجالات المعرفة ، والطاقة البدنية ، والقدرة على الزيادة والتوجيه ..

---

(١) البقرة : ٢٦٤

(٢) البقرة : ٢٦٢

فصاحب المعرفة العامة أو المعرفة الشخصية يعطى فى غير مقابل لوجه الإنسانية أو ابتغاء وجه الله من يحتاج إلى معرفته قسطاً منها ، إذا كان حقاً قد تأثر بالصوم كعبادة .

وصاحب الطاقة البدنية ، أو صاحب القدرة على الزيادة والتوجيه والمشورة الخاصة يكون على استعداد دوماً فى خدمة المصلحة العامة ، متمثلة فى أشخاص أصحاب حاجة أو متمثلة فى مشاكل أو أزمات ، ويبذل فيها من طاقته وقدرته ما يحتاجه العون ، دون أن ينتظر مقابلا ، ولا جزاء أدبياً على ما يؤديه .

وهنا يكون الصوم بطرفيه ـ طرف الإمساك ، وطرف الإعطاء ـ عبادة تجعل من الصائم إنساناً فى سلوكه ، يشعر بأنه مع غيره ، ومرتبط معه بروابط الوجود والكيان الخاص ، ويشاركه الحاجة والعون فيها . فالإمساك أو الحرمان طريق ، والإعطـــاء فى غير مقابل من النشاط الإنسانى فى مال ، أو فى علـم وفن ، أو فى خبرة ، أو فى طاقة بدنية ، طريق أخرى وكلاهما تتكمل عبادة الصوم بهما ، إن أُديت كقُربى إلى الله تعالى .

وهنا أيضاً من يظن أن الصوم فترة تنتهى فى حياة الإنسان ، أو من يظن أنها من آثار الماضى التى لم يعد لها مكان فى الحياة الإنسانية المعاصرة لم يقف على غاية تلك العبادة ، أو يقف عليها من حياة الآخرين ـ وهم كثيرون ـ فى غير أثر لها فى تهذيب ، أو فى غير حمل لها على إتجاه سلوكى متميز فى حياة الصائمين اليوم أو بالأمس القريب أو البعيد .

* * *